حين يبكي الناي

للكاتبة الباكستانية: زبون النساء حمد الله

رغم أن جميع الرؤوس كانت راكعة للعلي القدير، إلا أن اثنين ذاك المساء كانا يحلقان بفكرهما بعيداً عن تلك الأجواء الروحانية، وحتى حينما وقعا ساجدين فقد اكتنفهما ذات الذهول وتشتت الفكر. نظر أحمد إلى أبيه من زاوية عينه وكان التعبير الذي أبصره مفترشاً قسمات ذاك المحيا الكهل، كافياً لأن يعلم منه بأن أباه قد سمع هذه المرة وبأنه لن يغفر أو يتسامح ولذا فإنه رغم كل مابذله للانغماس في بوتقة الخشوع، إلا أنه كان يردد الآيات الكريمة كما يردد الببغاء ما يسمعه... انصب كل تفكيره في أصغر أخوته... وانحصر سمعه في تلك الموسيقى العذبة الرقيقة تنساب من الناي انسياب القطر فوق أكاليل الزهر.

وانتهت الصلاة فتفرق جمع المصلين، وكان من عادة «ولايتي علي» التريث في باحة الجامع ليتجاذب أطراف الحديث مع صحبه حتى يحين موعد العشاء، إلا أنه اليوم لم يفعل ودون أن يحيد ببصره يمنة أو يسرة انتعل على عجل حذاءه وخرج لايلوي على شيء، ذارعاً الأرض الوعرة أمامه منطلقاً بمحاذاة حقول الأرز ومروراً ببركة القرية، اتجه إلى منزله.

وتبع أحمد والده وما إن أصبحا بمعزل عن أي سامع حتى فجَّر «ولايتي علي» غضبه: هل سمعت؟ همس فاحاً كأفعى أرّقها القيظ! وردَّد سؤاله في عنف اهتزت له لحيته البيضاء... غاضبا جداً كان.

وأقسم حانقاً: والله! قال متطلعاً في كدر إلى السماء التي كدرتها رياح الهند الموسمية: سيدفع الليلة ثمن ذلك!

أطبقت كفا «نازو» الصغيرة على ثمرة المانجو الفجة قبل أن تفتحهما وتغلقهما في عصبية وقلق ثانية. كانت تجلس تحت شجرة المانجو منتظرة لما ينيف عن الساعة أوبة أبيها وجدّها. أحست بالوحدة وخالط الخوف فؤادها الصغير بمرور الوقت وتطاول الظلال حولها، ولأنها كانت خائفة، وبحثاً عن شيء من الثقة والاطمئنان فقد التقطت حبة مانجو وبشدة أطبقت عليها أسنانها الصغيرة البيضاء الحادة. لقد هرعت «نازو إلى هذا المكان» حالما سمعت صوت «الناي» وقبل ذلك كانت منهمكة مع قريباتها في لعب طفولي بريء بالدمى.. كنّ يضعن عرائس القطن اللواتي صنعتها أمهاتهن في أسرتهن وعندما انطلق صوت المؤذن عَدَتْ صوب النافذة ولوّحت لأبيها وجدها مودّعة.. قبل أن ينطلقا إلى الصلاة في جامع القرية، بعدها تسلل إلى مسامعها ذاك الصوت الحاني المزعج للناي، في العادة كان ذاك الصوت يستهويها فتترك مابيدها لتتسلق عتبة النافذة فتجلس عليها راميةً ببصرها إلى أشجار النخيل الباسقة مرهفةً السمع... لكن قلبها الصغير قد توقف الآن عن الخفقان أو هو يكاد، وسقطت دميتها من يدها دون اكتراث فتدلت ضفيرتاها المصنوعتان من القنب ـ أما «نازو» فقد همست لنفسها: ـ ستقع مشاكل بالتأكيد ـ وأكملت وهي تشعر بدوار في معدتها ـ مشاكل كثيرة ستحدث لاشك. واتسعت حدقتاها رعباً بعد أن تسلل إلى سمعها صوت المؤذن الجهوري يدعو إلى الصلاة في خشوع وعذوبة وقد امتزج صوته بأنين الناي.

وتسللت من بين صويحباتها فاتجهت صوب المطبخ حيث كان النسوة يعدون طعام العشاء. كانت أمها تحرك شيئاً في القدر وقد احمرت وجنتاها من شدة الحر، فيما التهب فمها بحرارة من نوع آخر.. شطة التهمتها للتو. شكل ذلك لوحة جميلةً للرائي. وانزلقت «نازو» فالتصقت بأمها ثم طفقت ترقب جدتها وهي تصفّي الأرز المسلوق. وولج فجأة تيار عنيف فتح باب المطبخ على مصراعيه فتسللت عبره أصوات المساء. تطرق إلى مسامعهم ـ بادئ ذي بدء ـ صوت الأذان

رائعاً قوياً مجلجلاً، وعقبه ذاك النغم الهادئ الحالم... المنساب من شفة «المزمار» وارتعشت يدا العجوز المسنة وهي تصغي إلى ذاك النغم حتى إنها سكبت كثيراً من الأرز مع الماء، وسارعت بوضع الإناء جانباً قلقةً ثم انحدرت إلى الساحة قبل أن ترهف السمع مصغية في ألم.

وتبعتها «نازو» وظلت ترقبها وأصابعها الهرمة تقلب في أطراف الساري الذي كانت ترتديه «لطفك يارحمن!» قالت باكيةً: «يارحمن لطفك» كررت، فيما تخلل سمعها ثانية صوت الأذان يكدره أنين المزمار ولحقت بها كنتاها بعيد ذلك فالتفتت إليهما:

ـ ماذا عساي أن أفعل؟! ـ تساءلت فيما يشبه النواح ـ

وكررت: ـ ماذا أفعل بذاك الغلام؟.

وقالت أم «نازو» في صوت حاولت أن ينتشي بالسكينة:

ـ ربما لم يكن هو!

ـ أنا متأكدة من أنه ليس هو ـ قالت كنتها الأخرى محاولةً التخفيف عنها. فقطار المدينة الأخير لم يصل بعد.

ـ أجل! ـ قالت المسنة ـ لايمكن أن يكون هو، ربما كان العازف سواه... وأتم المؤذن النداء الرباني... وتلت ذاك ثانية أو اثنتان من الصمت المطبق ثم... سُمع صوت المزمار تارة أخرى.. كانت مفاجأة غير سارة... لاشك في ذلك.... كان الصوت هذه المرة أعلى وأعذب.. وغشتهن سحب الحزن إذ ذاك... كن يدركن في قرارتهن ألا أحد في القرية قاطبة يضاهي «عليَّاً» في روعة العزف ـ فليرحمنا الرحمن جميعاً ـ همست المسنة في قلق مضنٍ لن يغفر له أبوه هذه المرة!.

وخفق قلب «نازو» الصغير بسرعة بين جوانحها وهي تقلب النظر في الملامح المذعورة أمامها.

ـ لقد قلت له ـ قالت المسنة وقد شارفت على البكاء ـ قلت له ألا يضيع وقته في نفخ ذلك المزمار ـ ثم.. ثم أنني قد حذرته من العزف بصوته المنكر في أوقات الصلاة.

ومع كل هذا... ـ غفرانك اللهم. رددت معولةً: إلهي.. اغفر لي أن أنجبت ابناً يتصرف كالكفرة:

ـ لا تكوني قاسيةً عليه إلى هذه الدرجة يا أمي! «عليٌّ» فتى طيب ومؤمن حقّاً!.

ـ أجل ـ قالت الكنة الأخرى ـ إنه رقيق، رفيق، طيب القلب نقيُّه.

ـ فلِمَ إذاً يصرُّ على ذلك ـ ناحت المسنة ـ لمَ يضيّعُ مع ذلك المزمار وقته بدلاً من الالتفات لدروسه كبقية الأولاد... ثم... ما الذي يجعله يختار وقت الأذان للنفخ فيه؟ لِمَ يا ترى رغم أن أباه قد جلده من جرّاء ذلك مرات لا تحصى.

ـ إنه يعتقد أن ذلك نوع من العبادة! قالت «نازو» بطريقة عفوية.. فاستدارت السيدات فجأة ناحيتها في دهشة واستنكار!

ـ لقد قال لي ذلك ـ تابعت «نازو» وعيناها الكبيرتان تتوسطان في هدوء وجهها الصغير ـ والحزن يغشى صوتها الطفولي: لقد قال لي أنه يفعل ذلك لأنه يحب الله كثيراً.

وابتسمت النسوة في طيبة... وقد بدت لهن بكل عذوبة الطفولة وبراءتها:

ـ هيا انطلقي فالعبي مع صويحباتك ياذات الرأس الكبير تحمله أكتاف صغيرة. قالت جدتها قبل أن تقرصها ـ مداعبة ـ في خدها البضّ وسمعت «نازو» كلام جدتها لكنها لم تعد للعب مع صويحباتها بل اتخذت الطريق المؤدية إلى مسجد القرية... كانت السبيل مهجورة في تلك الساعة من الليل وما أنا تطاولت الظلال حتى دبَّ الخوف في قلبها لكنها ظلت تعدو حتى حاذت بركة القرية. عندها.. خفّفت من وقع خطاها واستشعرت قشعريرةَ تمتد على طول عمودها الفقري.. لقد تذكرت ما يروى عن البركة من أن المردة والعفاريت تتخذ منها مقرّاً لها.

وبثَّ مرأى شجرة المانجو المألوف شيئاً من الطمأنينة في تلافيف ذاتها على أنها لم تستطع التوغل وحيدة فاكتفت بالجلوس على صخرة بجانب البركة وآثرت الانتظار. كانت صغيرة السن لكنها سبقت زمنها فكراً ونضجاً... وكانت تخطط لملاقاة جدها الذي تعرف مقدار حبه لها حتى إذا ما أقبل سارعت تلاطفه وتخفف من غلوائه، علَّ شيئاً من غيظ قلبه يزول قبل وصوله إلى البيت.

كانت تجلس هناك... تحت شجرة المانجو بقوامها الصغير فما جاوزت من العمر ستاً لكن ذاك الفؤاد النابض في صدرها كان فؤاد امرأة وبعاطفة المرأة، كانت تسعى لإنقاذ عمها المفضَّل من سورة غضب أبيه! وطفقت تقضم بين الفينة والفينة ثمرة المانجو الفجة كأنما ليفرخ روعها وهي تفكر في عمها الذي تحبه كثيراً كما الحب الذي تهبه بنات العاشرة من العمر لإخوتهن الأكبر سناً.كم كان مختلفاً عن بقية صبية القرية! كان دمث الأخلاق رقيقاً حانياً... لكن الجميع ناصبه العداء، وبخاصة جده.. ذاك الجد الحنون العطوف المحب.. ذاك الذي ماسمعت منه كلمةً جارحة قط... ذاك الذي جلد «عليًّا» مرات لا تحصى.. ودونما شفقة...! وكان المزمار هو السبب دائماً... لم تجد الصغيرة «نازو» تفسيراً لذلك كانت تعشق الطريقة التي يعزف بها «عليٌّ» على الناي.. فيثير كوامن الشجن يهدهده حتى تسيل ألحانه ينبوعاً من النغم السّاجي يرشح عبر خلايا عود القصب ذاك! ـ تلك هي طريقتي في إزجاء آيات الحمد والشكر لله كان غالباً مايقول لها ـ على ماحبانا به من نَعم جمال حقول الأرز ـ روعة انسكاب لجين القمر في دمقس المساء ينسكب على وجنة البركة شلال ضياء، سحر السماوات تصقلها رياح الهند... وطيبة وعذوبة أمثالك من البشر يا «نازو»! لطالما ناجاها في رقة.

لقد أقبلا لاشك.. لابد أنّهما هما! قالت لنفسها وَوَقْعُ الخطى يشتد أكثر فأكثر... وأنشبت أسنانها الحادة الصغيرة في الثمرة كأنما تكبح بها شيئاً من معاناتها قبل أن تقفز بارتياح لما بَصُرتْ بأبيها وجدّها. وجثمت في مكانها الظليل

حتى إذا ماصار على مقربة منها قفزت فجأة محاولة إخافتهما.. وصدما لوهلة، على أنهما أدركا بعد برهة مصدر الصوت فغرقت في ضحك عميقٍ مدوٍّ! وشبكت أصابعها الصغيرة الدافئة في راحة جدها الهائلة وسألته في براءة:

ـ أخفتك جدي؟

وما أن رأى «ولايتي علي» ذاك الجسد الممتلئ الصّغير يهتز ضاحكاً منه حتى تلاشى كل ما كان بقلبه من غيظ وغضب:

ـ أيتها الشقية الصغيرة! قال ضاحكاً قبل أن يقرص أذنها مداعباً: ـ تحاولين إخافة جدِّك هاه؟!

وضحك «أحمد» كذلك.. قهقه عالياً.. لا لمزاح والده الطفولي وإنما لإحساسه بأن ابنته قد استطاعت أن تستلّ سخيمة أبيه وانتشت «نازو» برحيق الانتصار فدست يدها الأخرى في يد والدها وهي تقفز بينهما في سعادة في الطريق إلى المنزل.

عندما وصلوا كان القلق قد بلغ بجدتها كل مبلغ:

ـ أين كنت أيتها الشقية؟

وجدت جدتها منفذاً لكل مخاوفها وغضبها عبر الجسد الصغير القابع أمامها وشعرت «نازو» بالذل والانكسار فحلت أصابعها من يدي أبيها وجدِّها وتمنت لو أن جدَّها انبرى للدفاع عنها.. على أن شيئاً من هذا لم يحدث ما أسرع مانسي الشيخ وجودها!

ـ أما عاد ذاك الوغد الشقي بعد؟ سأل «ولايت علي» بعله في غضب!.

ـ «عليّاً» تقصد؟ سألته بدورها في تجاهل.

ـ ومن سواه يجرؤ على تشويه اسم عائلتنا العريق، من سوى طفلك المدلل! من سواه يجرؤ على عزف الناي أمام المساجد غير عابئ بقدسية المكان والزمان؟

واحمر وجهه ثانية فسرت في العائلة نظرات قلق متبادلة فيما زمجرت السماء منذرة بهبوب عاصفة استوائية أخرى!.

ـ لو لم يكن ابناً لي لأشبعته ضرباً! ـ وتزايد غضبه فتزامن مع غضب السماء ـ تكثرين تدليله... تكثرين تدليله حتى أفسدته.. لقد تساهلت معه في السابق كثيراً.. والله!.. لن يفلت من عقابي هذه المرة. سأضربه حتى يسودّ جلده ويصرخ طالباً الرحمة التي لن ينالها حتى يقسم يميناً مغلظة... أمامي بأنه سيترك ذاك الناي الخبيث... أين هو ـ حوّل دفة الحديث فجأة في شك ـ أتخبئينه عني؟ هل...؟.

ـ لم يعد بعد! ـ قالت زوجته مهدئة ـ أنسيت أنه ذهب إلى المدينة لاستطلاع نتائج القبول!.

ـ لقد عاد بالتأكيد! ألم يجرح عزفه مسامعنا إبان أداء الفريضة في تحدٍّ واضح؟.

ـ ربما.. ربما كان يعزف الناي أثناء عودته من المحطة دون أن يدرك تزامن ذلك مع وقت الصلاة ـ إنه لم يعد بعد.. ردت زوجته في محاولات مخلصة لتهدئته.

على أن «ولايتي علي» كان يذكي نار الغضب أكثر فأكثر:

ـ سأخبرك لِمَ لمْ يعدْ.. لأنه رسب في الامتحان.. هذا هو السبب... ذاك الشرير... حالما يصل سوف.. وغادرت الصغيرة «نازو» المكان وقد غارت سعادتها وأحسّت بقلبها الصغير يهوي إلى أعماقها.. لم تتناول الطعام مع أعمامها بل اتجهت إلى فراشها محاولة أن تنسى أو تتناسى أن عمها المفضل سيواجه تلك الليلة كثيراً من الجَلْدِ المؤلم وموقِّعُ العقاب؟... فكرت في أسى هو جدُّها.. ذاك الحنون الرقيق الذي استحال في أحلامها وحشاً ضارياً.

لاريب أن شرانق الصباح قد تفتحت فقد صاحت الدِّيَكَة، واستيقظت «نازو» على أصوات غريبة.. لكن غرفتها كانت لما تزل غارقةً في ظلام دامس رغم أن الغناء الخارجي كان يضج بقناديل العاصفة تتأرجح في الأيادي ما الذي يحدث؟ تساءلت «نازو» وهي تتأمل الجمع! ثمة جمع كثيف احتشد في الساحة... كانوا. يتحدثون بقلق واهتمام.. ولمحت تعابير الفزع على ملامح أبيها وجدّها.

كان المطر قد توقف عن الهطول للتو.. فيما إسّاقطت بقيةٌ من قطرات.. منزلقة عبر حواف الأسقف.. وانثالت عبر المزاريب بحار من ماء فقد كان المطر غزيراً. ولاحظت «نازو» بأن أحداً لم يهتم بما أحدثه المطر في الملابس من أثر.. ثمة أمر غاية في الأهمية إذاً حدث فأحال مسألةَ ابتلال الملابس أمراً غير ذي بال؟ ما الخطب ياترى؟ تساءلت في براءة.

ـ لا أثر له البتة! سمعت جدتها تصرخ في ألم..صوتها كان غير صوتِها! لقد بحثنا عنه في كل مكان... حتى سطح المنزل.. حرثناه فما عثرنا له على أثر!

ـ إنه هو.. أقول لكم... هو بعينه. قفز إلى أذني «نازو» صوت حلاّق القرية.

ـ هيا إذاً! صاح أبوها بنفاد صبر ـ لا تضع الوقت هيا بنا جميعاً. وشرع في الانحدار صوب الحقول سريعاً فيما تبعه الموكب... والأقدام تغوص في الوحل بين الفينة.. والأخرى... بينما تأرجحت قناديل العاصفة في أيديهم جيئة وذهاباً ناشرةً عبر خطوط الليل دوائر مرعبة راعشة كوهج الحمىّ.

ولاحظت «نازو» بأن جدَّها كان يمشي بخطى متثاقلة وأنفاسه الثقيلة تنبئ عن حزن عميق، على أنه بدا جليًّا أنه كان يبذل قصارى جهده لمواكبة الجمع الزاحف، الأصغر سنًّا. وغافلت نساءَ المنزل فلحقت بجدِّها لما أحسّت بأنها بمأمن من نظراتهن.

ورغم أنها كانت تخشى أن يؤنبها جدها على تركها المنزل إلا أنها تذرعت بالشجاعة ودست أصابعها في كفّه، لقد أرّقها ما أبصرت في عينيه من ألم... أما هو فإنه ما أن شعر بكفها في يده حتى غشيته نشوة... نفخت في روحه شيئاً من العزاء... وأطبق على كفها بحميمية وحب.

ونقت ضفادع في الجوار، فيما شرعت كائناتُ الليل الصغيرة في عزف أعذبِ سيمفونياتها.. بينما كان الموكب يشقّ الطريق الموحل الضيق وظلوا يغذون السير وكأن على رؤوسهم الطير إلى أن أدركت «نازو» بأنهم كانوا يقصدون الشجرة المفضلة «لعليّ»! تلك التي طالما افترش ظلها ليرسل أنغام نايه الرقيقة... والتي علّمها تحتها كيف تعزف تلك المقطوعة السهلة.

وفجأة انطلق حلاق القرية الذي كان يسير خلف والدها.. انطلق كالملدوغ فأمسك بذراع والدها صائحاً ـ هناك. وأشار إلى شجرة عالية ورفع قنديله صوب الشجرة: انظر. صرخ بانفعال، وواحداً إثر آخر شرع الرجال في رفع قناديلهم صوب الشجرة التي أبصرت «نازو» في أعلاها ـ على ضوء القناديل ـ جسماً مألوفاً حبيباً.. قريباً لفؤادها.. وقد تدلى بصورة غريبة من أحد فروعها!

ـ تمعَّن في الوجه ـ صاح الحلاق بإلحاح رافعاً قنديله ـ أما قلت لكم بأنه «عليّ»؟ أما قلت لكم؟! هذا... هذا... نا..

ـ اصمت!.. صه أيها الأحمق! ـ صاح به ممسكاً بكتفيه ـ واستدار الحلاق في نفاذ صبر إلا أن التعابير التي أضاء بها وجه أحمد كانت كافيةً لإسكاته فما كان منه إلا أن أنزل المصباح في خجل.

على أن الجميع كانوا قد تحققوا من هوية الجسد المتدلي.

ونحّى «ولايت علي» «نازو» بشدة قبل أن ينطلق صوب الشجرة، وفي خضم ذلك زلت قدمه فوقع في الوحل.. وعندما استقام واقفاً ثانية كانت ملابسه البراقة دوماً قد تشربت الطين، أما ذقنه البيضاء فقد لوّثها الوحل كذلك:

ـ إنه ابني! ـ صاح بلوعة ـ إنه «علّي» ابني أنزلوه... أنزلوه! وانخرط في بكاءٍ عميق كطفل فقد أمه.

وحوّل الرجال أنظارهم عنه فيما أمسك بعضهم بمنكبيه يواسونه، وتسلّق الحلاق الشجرة فقطع بسكينه الحادة حبل الجسد المعلق، وما أن هوى حتى تلقفته يدا أبيه القويتان لكنه هوى على الأرض رغم ذلك وتدحرج خلسةً ناي انطلق من إحدى يديه.

وتحلق الجميع حول طبيب القرية في قلق.. لكنه هز رأسه في يأس بعيد المعاينة فارتفع نشيج «ولايتي علي» مجدّداً، مقطعاً نياط القلوب حتى فاضت الأعين بالدمع ـ وانحنت «نازو» فالتقطت الناي قبل أن تمسحه بطرف جلبابها. ورآها أبوها لكنه لم يغضب.. بل إن عينيه امتلأتا راحةً واطمئناناً ـ

ـ اذهبي إلى جدك! همس لها قبل أن يلتفت إلى الجمع مصدراً تعليماته.. ثم انحنى واثنان من الرجال على الجسد الجاثم على الأرض فحملوه وساروا تنير لهم الدرب عشرات القناديل. وبدأ الموكب رحلة العودة إلى القرية.

اثنان من صحب «ولايت علي» كانا يسندانه.. فقد كان في حالة يرثى لها من الضعف والوهن.. أمضّه الحزن وجرّحه الأسى والأسف وتدلت يداه فكأنما كان ينوء بحمل جسيم أثقل كاهله.

وتأملته «نازو» مليّاً.. كان منظره والدموع من عينيه.. وبقايا من وحل يلطخ لحيته الكثيفة.. يمزّق نياط القلوب... ولم تحتمل الصغيرة كل ذلك... أحست بالألم يعصر فؤادها حتى خشيت أن يتوقف عن الخفقان... أن ينفجر فيتبدد حطاماً يملأ المكان.. لطالما حدثها «عليّ» أقرب أعمامها إلى قلبها عن تلك القلوب التي تمتلئ هماً وكدراً فتنكسر إلى آلاف الشظايا.. وطلبت البكاء فلم يسعفها! رامته فما وافاها.. ودسّت يدها الدافئة دوماً والتي استحالت راهناً قطعةً من الثلج.. دستها في يد جدها محاولةً أن تخفف عنه.. وسارا سوياً.. وطيلة الوقت كانت عيناها.. المتسعتان، الممتلئتان رعباً من هول مارأت.. تحدقان في الجسد الناحل.. المحمول أمامها... وفيما كان الركب يسير.. كان الجميع يتحدثون بهمس مخافة أن يصل مايقولون إلى أسماع «ولايتي علي».. لكن حديثهم لم يفت سمع «نازو» المرهف الغض:

ـ كان فتى طيبا! قال أحدهم.

ـ أذكى من أنجبت القرية ـ قال مدير المدرسة بحزن جمّ ـ كنت أعلق عليه آمالاً كبيرة.

ـ لكنه رسب ـ سأله أحدهم ـ ألم يكن ذلك سبب انتحاره؟ كان أحمد يرتدي جلباب الصمت.. ظل يقرض شفته السفلى حتى لا تفر من مآقيه الدموع... وتابع المدير وقد تملكته سورة غضب:

ـ «عليّ» يرسب؟ أما قلت أنه أنجب أبناء القرية! لقد ذهبت اليوم معه إلى المدينة لاستطلاع نتائج القبول.. أتعلمون؟ ورفع قنديله لاستطلاع ملامح الجمع أمامه. لقد كان الأول على قائمة المرشحين الناجحين.

ـ فلم إذاً فعل فعلته؟ لم... لم؟

تساءل الجميع في دهشة وذهول مسترقين النظر إلى أخيه أحمد وقد زم في ألم شفتيه، وإلى أبيه «ولايت علي» وهو لما يزل يسكب مُرَّ الدموع!

وكأنما نمت للسؤال أجنحة فإذا هو يحلق فوق رؤوسهم.. وبدا وكأنما كان ينفث سحراً حتى أن وقع خطاهم فوق الأرض الموحلة واهتزاز القناديل جيئةً وذهاباً كان كسؤال يتردد في إلحاح: لِمَ... لِمَ؟!!

وتسربت أنباء الفجيعة.. فاصطف الفلاحون يرمقون الموكب المتهادي بالجثة المغطاة بدثار من الصوف محليّ الصنع جلبه الحلاق معه.. وما أن حاذوا بركة القرية حتى شعّ الفضاء بعبق إلهي.. تردد صوت الأذان عذبا رخيماً ربانياً.. ينير ظلام الدجى.. وتوقفت دموع «ولايتي علي» فلم تعد عيناه تهملان.. ورفع رأسه المنهك الحزين إلى السماء، فقال في خشوع: ـ «إنا لله وإنا إليه راجعون» وردد الجميع ما قال... وهم يسيرون الهوينى باتجاه المنزل. حيث النساء الباكيات الثكالى.

وبخفة.. حرّرت «نازو» يدها من كف جدِّها وانطلقت عائدةً في الاتجاه المعاكس.. وظلت تعدو بخفة... غير عائبةٍ بالوحل وحفر الماء الصغيرة تتزلق فيها قدماها الحافيتين بين الفينة والفينة.. كانت تعدو وصوت الأذان العذب لمايزل يعبق فيحي موات الأمل ويسكب في الدجى أبهى الضياء.. ووصلت مع انتهاء الأذان إلى الشجرة التي قضى عمها نحبه فوقها.. كانت تلهث بشدة فجلست لتلتفظ أنفاسها وتطلعت نحو السماء.. كانت الشمس تفْلقُ الأرضَ بازغةً وظلال الفجر الوردية تضرج خد السماء فتبتسم في خفر، وكان الألم في فؤادها لما يزل يمور ويمور.. ألم ممضّ لا يطاق.. أحست به يكوي أضلعها وخشيت على قلبها أن يتصدع.. لكنها طمأنت في براءةٍ ذاتها:

ـ لم ينفلق في ذروة الصراع راهناً... لاخوف من ذلك الآن! ومدت يدها فنخَّت خصلات شعرها الرطبة عن وجهها ثم... أنعمت النظر في ناي «عليّ» ومدت يدها فأعادت مسحه بذيل فستانها ثانية حتى زال كل أثر للوحل عنه.. وفي خضم ذلك.. انطلقت الدموع من عينيها.. أخيراً.. دموع هادئة ساكنة.. لم تكن غزيرة جارفة.. بل انسابت في صمت ورقة.. وسقطت إحداها على الناي.. ومع انبثاق الدموع.. استشعرت: «نازو» راحة وطمأنينة.. ياللدموع كم تريح.. هي بلسم رباني لا يضاهى ـ ناجت نفسها.

وبحذر.. امتدت يدها الصغيرة فمسحت تلك الدمعة الكبيرة التي تسللت خلسة فتدحرجت على قصبة الناي وقربته من فمها فقبّلته في رقة:

سأتعلم العزف عليه بذات الروعة التي كنت تعزف بها ـ ناجت في هدوء عمها العزيز الراحل.. وسأظل أدعو لك بالمغفرة والرحمة.

ولن أنسى أبداً.. أن صوت الحق تردده الآفاق.. هو أقوى من كل صوت.. وأن قدسية الأذان لا يعلى عليها!

وأدنت «الناي» فوضعته على شفتيها وشرعت تنفخ فيه برقة متناهية... خشية أن تجرح مشاعر جدها!.